المحاضرة الثالثة: أقسام المنهج.

عندما ينظر الناظر في موضوع مناهج البحث في اللغة يجدها متنوعة بتنوع النشاط الإنساني لأننا عندما نتناول هذا الموضوع ندرس المجالات التي ينشط فيها هذا الموجود العقلاني ،إن مناهج البحث في اللغة عادة يجب أن تصب على المسألة اللغوية , بما في ذلك تحليل الظواهر اللغوية , وعلاقتها بالصواب والخطإ على المستويين، المستوى الصوابي الاجتماعي , والمستوى الصوابي الدراسي , لكن الباحثين لم يقفوا عند هذا الحد وأدخلوا مواضيع أخرى في مناهج البحث في اللغة.

من التقسيمات المشهورة لمناهج البحث، ذلك الذي يجعله قسمين[1] ، هما :

أ ــ **المنهج التلقائي :** ويراد به ما يزاوله عامة الناس في تفكيرهم وأعمالهم من دون أن يكون هناك التفات منهم إليه، أو خطة واضحة ثابتة في أذهانهم له، وإنما يأتيهم عفواً ووفق ما يمليه الظرف،وقد أشار إلى هذا مناطقة بورت رويال اعتبار أن عقلاً سليماً يستطيع أن يصل إلى الحقيقة في نطاق البحث الذي يقوم به، بدون أن يعرف قواعد الإستدلال .

ب ــ **المنهج التأملي :**وهو ما نسميه ونصطلح عليه بالمنهج وسمي بالتأملي لأنه جاء نتيجة التأمل الفكري الذي أدى إلى وضع قواعده وأصوله، وهو ينقسم إلى قسمين رئيسين، هما:

ــ **المناهج العامة :**وتعرف بالمناهج المنطقية أيضاً.

ــ **المناهج الخاصة :**وتسمى المناهج الفنية أيضاً.

أما المناهج العامة فهي تلكم القواعد المنهجية العامة ، التي يرجع إليها عند البحث في أي حقل من حقول المعرفة، و تنقسم المناهج العامة إلى الأقسام التالية: المنهج النقلي- المنهج العقلي- المنهج التجريبي- المنهج الوجداني .

ــ **المنهج النقلي**: هو طريقة دراسة النصوص المنقولة، ويقوم على عناصر عامة هي توثيق إسناد النص إلى قائله، بمعنى التأكد من صحة صدور النص من قائله، ويتأتى هذا بالرجوع إلى المنهج الخاص في المجال المعرفي الخاص به، كعلم الرجال في دراسة أسانيد أحاديث الأحكام الفقهية، وتاريخ الرواة العاربة والحاضرة في دراسة اللغة والأدب ، و التحقق من سلامة النص بمعنى التأكد من أن النص لم يدخله التحريف أو التصحيف أو الزيادة أو النقص ، أي أنه سليم من هذه وكما قاله قائله ، ثم فهم مدلول النص الذي يتأتى بالرجوع إلى الوسائل والأدوات العلمية المقرر استخدامها لذلك، وتعرف في ضوء المنهج الخاص بحقله المعرفي كعلم أصول الفقه بالنسبة إلى معرفة مداليل النصوص الفقهية من آيات وروايات، ومجال استخدام هذا المنهج: كل معرفة مصدرها النقل .

ـ **مجال استخدام هذا المنهج**: كل معرفة مصدرها النقل.

المنهج العقلي :هو طريقة دراسة الأفكار والمبادئ العقلية ويقوم على قواعد علم المنطق الأرسطي، فيلتزم الحدود والرسوم في التعريف، والقياس والاستقراء والتمثيل في الاستدلال .وقد عدّل فيه المناطقة المسلمون، فالتزموا في التعريف ما سموه ب (شرح الاسم)، وابتعدوا عن وجوب الأخذ بالحد والرسم، وعللوا هذا بعدم وجود فصول لحقائق الأشياء يمكن الوصول إليها ومعرفتها، وعليه يكتفي ب (الخاصة) وهي تعني ما يطلق عليه في البحوث العلمية التجريبية ب (الظاهرة) وبتعبير آخر أدق إن الفكر هو حركة العقل بين المعلوم والمجهول،وتحليل ذلك أن الإنسان إذا واجه بعقله المشكل (المجهول) ، وعرف أنه من أي أنواع المجهولات هو، فزع عقله إلى المعلومات الحاضرة عنده، المناسبة لنوع المشكل، وعندئذ يبحث فيها، ويتردد بينها، بتوجيه النظر إليها، ويسعى إلى تنظيمها في الذهن، حتى يؤلف المعلومات التي تصلح لحل المشكل، فإذا استطاع ذلك، ووجد ما يؤلفه لتحصيل غرضه، تحرك عقله حينئذ منها إلى المطلوب، أعني معرفة المجهول وحل المشكل، فتمر على العقل ـــ إذن ـــ بهذا التحليل خمسة أدوار هي مواجهة المشكل (المجهول) - معرفة نوع المشكل، فقد يواجه المشكل ولا يعرف نوعه- حركة العقل من المشكل إلى المعلومات المخزونة عنده- حركة العقل (ثانياً) بين المعلومات للفحص فيها، وتأليف ما يناسب المشكل ويصلح لحله – حركة العقل (ثالثاً) من المعلوم الذي استطاع تأليفه مما عنده إلى المطلوب، ومنذ أن ترجم هذا المنطق من اليونانية إلى العربية عن طريق السريانية والفارسية، كما ولا يزال هو المنهج المعتمد في الدراسات الإسلامية، وبخاصة الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وأصول الفقه ، ومد رواقه أيضاً على الدراسات اللغوية العربية فاعتمد إلى حد بعيد في علم النحو وعلوم البلاغة.

ـ**المنهج التجريبي**: هو طريقة دراسة الظواهر العلمية في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، ويعتبر المنهج التجريبي المنهج العلمي الحديث، وأهّم ما تمخضت عنه النهضة العلمية الحديثة في أوروبا من معطيات فكرية، وكانت نشأة هذا المنهج العلمية قد تمت في القرن السابع عشر على يد (فرانسيس بيكون)، وقد ركز وأكد بيكون على ضرورة تخليص العلم من شوائبه الدينية (كذا)، وضرورة إخضاعه بكلياته وجزئياته للملاحظة العلمية ، وبمعنى آخر: يجب أن يقوم العلم على أساس وضعي بعيد كل البعد عن كل تأثير ديني أو ميتافيزيقي ، ثم رست قواعد هذا المنهج رسواً وثيقاً ومكيناً في القرن التاسع عشر عندما أصدر (جون استيوارت مل) كتابه (مذهب المنطق) ، وتم ـــ من بعد ـــ بسببه فصل العلم عن الفلسفة والدين، وقصر اعتماده على المنهج التجريبي فقط، واتفق آخرون على أن المنهج التجريبي هو " الملاحظة الموضوعية لظاهرة معينة تحـــدث في موقف يتميز بالضبط المحكم ويتضمن متغيراً أو أكثر متنوعاً بينما تثبت المتغيـــرات (العوامـــل) الأخرى"[2] ، ويقوم هذا المنهج على الاستقراء عن طريق الملاحظة والتجربة، ومجاله المعرفة التي مصدرها الحس، أما خطواته فهي تحديد المشكلة موضوع البحث- صياغة الفرضية، وهي مقولة مؤقتة عن صلة بين حادثتين أو أكثر، أو متحولين أو أكثر- إجراء الملاحظة أو التجربة- النتيجة .

وقوانين الاستقراء التي وضعها جون استيوارت مل لضبط عمليات البحث التجريبي لتؤدي إلى نتائج سليمة ومعرفة علمية صحيحة، هي[3]:

أ_ منهج الاتفاق : ومفاده: أن ننظر في مجموع الأحوال المولّدة لظاهرٍ ة ما نريد دراسة أسبابها ،فإذا وجدنا أن هناك عاملاً واحداً يظل موجوداً باستمرار على الرغم من تغير بقية العناصر أو المقومات، فيجب أن نعد هذا الشيء الثابت الواحد هو علة حدوث هذه الظاهرة .ويضرب لهذا مثالاً: (ظاهرة الندى)، فإن هذه الظاهرة تحدث أولاً حينما ينفخ الإنسان بفيه على جسم متبرد مثل لوح من الزجاج في يوم بارد .ونجد هذه الظاهرة أيضاً على السطوح الخارجية لزجاجات تستخرج من بئر .كما نجدها ثالثاً حين نأتي بإناء فيه ماء بارد ونضعه في مكان دافئ .ففي كل هذه الأحوال نجد أنه على الرغم من اختلاف العناصر التي تتركب منها الظاهرة، من نفخ على جسم بارد، أو سطح قارورة بها ماء يستخرج من بئر، أو سطح زجاجة مملوءة ثلجاً أدخلت في مكان دافئ، فإن ثمت عاملاً واحداً موجوداً باستمرار هو اختلاف درجة الحرارة بين الجسم وبين الوسط الخارجي أو الشيء المماس .فنستنتج من هذا أن السبب في حدوث ظاهرة الندى هو الإختلاف في درجة الحرارة بين الجسم والوسط المماس له.

ب_ منهج الافتراق : تبعا للمنهج السابق، لابد أن نأتي بمنهج مضاد في الصورة، لكنه مؤيد في النتيجة، فنجري ولكي نتأكد من صحة الاستنتاج وفقاً ما يسمى بالبرهان العكسي .هذا المنهج يسمى منهج الإفتراق .ويقول: إذا اتفقت مجموعتان من الأحداث من جميع الوجوه إلاّ وجهاً واحداً، فتغيّرت النتيجة من مجرد اختلال هذا الوجه الواحد، فإن ثمت صلة عليّة بين هذا الوجه وبين الظاهرة الناتجة .ونسوق مثالاً لذلك تجربة أجراها (پاستير) لمعرفة سبب الإختمار، فقد أخذ پاستير قنينتين ووضعهما في برميل واحد في درجة حرارة واحدة، وكان في كلتا القنينتين نفس السائل، وأغلق فوهة إحداهما، بينما ترك فوهة الأخرى مفتوحة، فتبين له بعد مدة من الزمن أن السائل في القنينة المفتوحة تغيّر وحدث فيه اختمار، بينما نفس السائل في القنينة المغلقة الفوهة لم يتغيّر و لم يحدث فيه إختمار .فاستنتج من هذا أن كون فوهة إحدى القنينتين قد تركت مفتوحة، بينما بقيت الأخرى محكمة الإغلاق هو السبب في حدوث الإختمار .ومعنى هذا أن الهواء هو السبب في حدوث الإختمار، وذلك لأن يحتوي على جراثيم دخلت السائل فأحدثت هذا الاختمار._

أنواع المناهج :قد يكون المنهج نوعا من السير الطبيعي للعقل , لم تحدد خطواته سابقا ، فالإنسان قد ينظم أفكاره و يرتبها على نحو تلقائي ليس فيه تحديد أو قواعد مسبقة أما المنهج الذي تعلمنا به المعارف العلمية المختلفة , فهو ينبني على قواعد محددة , و على خطوات متفق عليها ، لدينا إذن نوعان من المنهج الأول منهج تلقائي , و الثاني منهج عقلي تأملي و الواضح أن المنهج الثاني هو وحده موضوع للعلم , و هو باصطلاح أدق المنطق , لأنه يقوم على التأمل .

يتضمن المنهج كل الطرق تؤدي إلى الغرض المنشود ، لذلك تتعدد تصنيفاتها و تتشعب ،يمكن النظر إليها من النواحي العملية , فيجوز عندها التحدث عن المناهج بوصفها سلسلة اجراءات عملية أو سلوكية يتبعها الباحث في مجال تخصصه كما هو الحال بالنسبة لمناهج القراءة أو مناهج التعليم، ففي علم الطب يوجد منهجان : المنهج ، Antiseptique و المنهج العلاجي من الجراثيم Aseptique , الوقائي من الجراثيم [4].

تنقسم المناهج العلمية بالنظر إلى هدفها إلى صنفين ، منهج يكشف عن الحقيقة ويسمى منهج التحليل أو الاختراع ،

ومنهج التصنيف ، غير أن العديد من العلماء أن المنهج الأكثر استخداما هو المنهج الذي يقوم على تقرير خصائص ظاهرة معّينة أو موقف يغلب عليه صفة التحديد، ويعتمد على جمع الحقائق وتحليلها وتفسيرها واستخلاص دلالتها،كما أنه يتجه إلى الوصف الكمي أو الكيفي للظواهر المختلفة بالصورة الحقيقة للتعرف على تركيبها وخصائصها والواقع أن تصنيف المناهج يعتمد عادة على معيار ما حتى يتفادى الخلط والتشويش، وتختلف التقسيمات بين المصنفين لأي موضوع، وتتنوع التصنيفات للموضوع الواحد، وينطبق ذلك على مناهج البحث، فإذا طالعنا أدبيات علم المناهج نصادف تصنيفات عديدة , و منها على سبيل المثال لا الحصر[5] :

_تصنيف هويتني :رتب هويتني المناهج العلمية إلى: المنهج الوصفي- المنهج التاريخي- المنهج التجريبي-البحث الفلسفي- البحث التنبؤي- البحث الاجتماعي- البحث الإبداعي.

تصنيف ماركيز :رتب ماركيز مناهج البحث العلمي على النحو التالي : المنهج الأنثروبولوجي (الملاحظة الميدانية)- المنهج الفلسفي- منهج دراسة الحالة- المنهج التاريخي- منهج المسح- المنهج التجريبي.

تصنيف جود و سكايتس :المنهج التاريخي- المنهج الوصفي- منهج المسح الوصفي- المنهج التجريبي- منهج دراسة الحالة - والدراسات السريرية- منهج دراسات النمو والتطور والوراثة .

تصنيف فان دالين: البحث الوصفي ويشمل: البحوث السببية، البحوث الارتباطية، الدراسات التطورية- البحث التجريبي- البحث التاريخي- ، ونشير أننا نتناول المناهج و نبحثها أساسا , ضمن معناها الاصطلاحي الأساسي أي الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم , و ندرسها تبعا لاختلافها باختلاف العلوم ، غير أنه يمكن ردها إلى ثلاثة:

_ المنهج الاستدلالي أو الرياضي : و هو الذي نسير فيه من مبدأ إلى قضايا تنتج عنه بالضرورة دون اللجوء إلى التجربة , و هو منهج العلوم الرياضية أو التجريدية .

_ **المنهج التجريبي**: و يشتمل الملاحظة و التجربة معا ,و هو الذي نبدأ فيه من جزئيات أو مبادئ غير يقينية و نسير منها حتى نصل نتائج عامة لاجئين في كل خطوة إلى التجربة كي نضمن صحة الاستنتاج ,و هو منهج العلوم الطبيعية .

_**المنهج التاريخي**: و هو الذي نقوم فيه باسترداد الماضي تبعا لما تركه من آثار ،أيا كان نوع هذه الآثار ، و هو المنهج المستخدم في العلوم التاريخية و الأخلاقية.

هوامش و مراجع المحاضرة :

1_ أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه، وكالة المطبوعات ط 6 ، الكويت، 1982 ، ص 16.

2_ محمد حسن علاوى، اسامه كامل راتب، البحث العلمي ، ، دارالفكـــر العربي، القـــاهرة، 1999م ، ص217.

3_ محمد طلعت عيسى، البحث الإجتماعي مبادؤه ومناهجه ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة 1963 ، ص 27-28.

4_ أحمد بدر ، مرجع سابق .

5_ منصور نعمان و غسان طيب النمري، البحث العلمي حرفة وفن، دار الكندي، الأردن ، 1998.